الفصل الأول

لم تكن فاطمة شرقية المنبت والأص
ل بل جامعية أيضا.
لكن اليوم غير الأمس والاختلاف رهن أحكام الزمن الصارمة ومظاهر نقلات التغير واضحة كرؤوس أقلام في مدوّنة التاريخ.
كلنا نشعر بالتحوّل ونخضع لصيرورة التحويل فندرك يقينا أن الحياة لا تهدأ على حال. بتنا ثم أصبحنا نعلم أن ما نسعد به اليوم فرحا قد نشقى به غدا بكاء. ما نفقده الساعة قد نستعيض عنه بخلفه بعد ساعة أخرى. إذن، من المسلمات ألا نغترّ فنستشعر الأمان وألا نثق في الزمن المتغيّر، ومن السذاجة بقدر أن نركن إلى الظروف المتقلبة ونستسلم فنتداعى حتى نغفل عن مقدم غدنا الذي ـ أغلب الظن ـ حاملا ما نكره.
فاطمة مغتربة. كانت هجرتها مبكرة جدا جراء ظروف قاهرة يعلمها الله. لم تتجاوز التاسعة بعد يوم أن أخذوا بيدها وجاءوا بها إلى هذه الأصقاع الشمالية.
يومها لم يكن لها رأيا ولا خيارا في مسار مسالكها بين مسارب الحياة. لكن تدريجيا بات لها رأيا. تعددت آراؤها بتعدد مواجهاتها لظروف بيئتها الجديدة. من خلال تكرار الصدام تولدّت آرائها. ما كان ليكون لها أي رأي ذي أهمية لو أنها تداعت وانساقت مع تيار ظروف واقع غربتها واندمجت في مجتمع مختلف عن مجتمعها القديم، لو أنها انساقت فانصهرت في أتون ثقافة مغايرة تماما، لو فعلت لما اختلفت حياتها عن حياة جيرانها وصديقاتها وزميلاتها خلال كل سنوات الدراسة المتعاقبة.
ما الرأي إلا حصيلة تجربة. التجربة نتيجة التقلب في خضم المعايشة وتعدد المواجهات. مكاسب فاطمة اكتسبتها بالتدرج وعلى غرار حدة المواقف التي وفّرت لها الاحتكاك بظروف طبيعة وواقع البيئة الغربية.
أولى مواجهاتها مثار دهشتها متى استغربت من الاستثناءات والموانع التي استوجب عليها تطبيقها: ألا تأكل اللحوم المحرمة وبكل تيقظ تحذر مشتقات شحومها. كانت يومها طفلة ولم تكن قد عرفت شيئا عن مثل هذا المنع في بلدها، حيث كان الأمر عاديا لعدم وجود هذا الذي قد حُرم عليها.

دفعها فضولها أن تسأل وتتحرى الأسباب لمجرد فهم الفوارق ومعرفة ما لم تكن قد عرفت بعد. غير أنه لم يكن أبو فاطمة ولا أم فاطمة ليملكا القدرة على إيفائها بإجابة مبسطة مجرّدة والمقنعة. هز أبو فاطمة كتفيه عجزا وتأكيدا لعجز غيره أيضا في معرفة ما شاءت فاطمة معرفته. اكتفى بالإشارة إلى عدم وجود إجابة واقتصر على الإشارة إلى إحدى النصوص القرآنية:

".. لقد حُرّم علينا ذلك، وليس مهمّا البتة إن عرفنا أم لم نعرف السبب. لقد أوجب علينا التحريم فامتعنا.. لا غير."

رضي أبو فاطمة بالشرح المقتضب ورضيت فاطمة بصرامة فحوى الإجابة، غير أن "ماريا" التي نطقت بلسان صديقاتها الأخريات، في الصف الرابع، لم تقتنع. لم تستوعب فلم تستطع فهم القيام بأمر ما دون معرفة السبب الذي يحملها على تكوين "قناعة ذاتية" تدفعها بفعل ما لا يجب أن تفعل، سواء أكان سماويا أو دنيويا. كانت مرايا ملسنة،، متهورة يغلب عليها العنف في القول والفعل. فلم يكن غريبا البتة أن تجد سبلها من خلال تأويلها، فترى وجه "الغباء" في سلوك فاطمة وغموض معتقدها،

أحست فاطمة الحرج واهتزت ثقتها في أقوال والدها. تبادر إلى ذهنها أنها لمجرد كونها مسلمة بالفطرة وقعت بين يدي ماريا،، الغجرية السلوك.

دار أبو فاطمة حول نفسه دورة كاملة. أحس حجم وشكل المعاناة فاطمة. خشي عليها من عدم تحمّلها مثل تلك المواجهات التي حتما ستتكرر وتتنوع وتنبثق من أصل أو من عدم فتؤذيها. مواجهات صعبة لا يستعصى عليها حلّها بل أيضا قد يستحيل عليها مجاوزتها. كره حيرته من عجزه. كره أن يهتز إيمانها وتتصدع ثقتها في إسلامها على يد ماريا أو غيرها من الملاعين. ليس بوسعه اختلاق أعذاره فبعيب اللحوم المحرمة وإن فعل في هذه فثمة عشرات الأسئلة الأخرى الأشد إحراجا من أصل الأول وجميعها تستوجب شروحا لا حصر لها.

التمس إقناعها بضرورة الصمود:

"الإجابة السليمة والناجعة هي عدم الاستجابة إلى ماريا أو غيرها. من حقها سؤالك ولكن من حقك أيضا عدم الإجابة،، ترفعا واستخفافا بما تلتمسه منك.."

تطلعت فيه فاطمة بمزيج من الفهم والشك. بدت وكأنها تأسف لضعف حجة والدها وتشفق عليه من تورطه في ضعفه هو الآخر إزاء ماريا. أشفقت عليه من أن يعيش صعوبة الموقف الذي عاشته ساعة المواجهة الصعبة مع ماريا.

غير أن صمت والدها لم يكن عجزا ولا ضعفا. كان بصدد لملمة أطراف رأيه لصياغة إيضاحاته حسب قدرات فاطمة الذهنية.

شاء أن يمنحها القوة المناسبة لكل المواجهات الأخرى المحتملة في المستقبل. أراد مدّها بطاقة نمطية تحل لها كل المشاكل المتوقعة، تأكيدا، فتكون لها مرجعا قياسيا يغطي كل الضروريات اللازمة عند كل أحجام المواجهات ويثبّت أقدامها على أرض اليقين.

قال عن الأديان السماوية بأن جميعها واحدة. مُشرّعها واحد وإن تباعدت أزمانها واختلفت أماكنها وتباينت ألسنها وافترقت الأذهان في الأخذ بها.

أقام مقارنة بين اليهودية والإسلام. حدّد أوجه الشبه بين الشريعتين وما أجمعا عليه معا على تحريم تلك اللحوم. أيقن من أنها قد استوعبت قوله واتضحت لها خطوط بيانه على الورقة أمامها، ومن ثم أشار إلى وجود المسيحية في الحقبة الزمنية بين الديانتين. عندها أشار إلى اختلاف ضوابط المسيحية وتفردها بما أحلته لنفسها ونقضها قواعد شرعيتها مع أن المشرع واحد:

"لقد جُمّع الإنجيل وخُطّ بعد زهاء مئتي عام بعد الميلاد،، في دير منعزل حيث كانت مقاصد شريرة وأيدي آثمة حرّفت الكلم عن مواضعه فنقضت التوحيد وانتقصت ما شاءت انتقاصه وأضافت فأحلّت المحارم بغية الضلالة. لقد وفقت في سعيها الشيطاني وها هي أمم تعمل بتلك التعاليم دون إدراك خطئها بل و لا تريد فعل ذلك.."

انبهرت فاطمة..

ترسخ الحدث في ذاكرتها لأكثر من اعتبار.

اقتنعت باستحالة التوافق في أي رأي مع ماريا مستقبلا مهما اجتهدت في فعل ذلك. اقتنعت بانعدام الجدوى من مجادلتها. لكنها فرحت بهذه المعرفة التي بشكل غير مباشر دفعتها إلى اليقين من صوابها هي وخطأ ماريا. في غمرة فرحتها وعدت والدها ـ كما شاء لها أن تفعل ـ ألا تجادل أو تعارض أو تحتج أو تحزن،، ألا يهتزّ إيمانها ولا تشك في تعاليم إسلامها.

التقطت الورقة التي خط عليها والدها خطوطه التوضيحية بشيء من الفخر وبكثير من الفرح والارتياح وأزمعت على الاحتفاظ بها فألصقتها بسطح جدار من جدران غرفتها.

جاءته ثانية..

عادت إليه ثالثة..

أما في المرة الرابعة لم تجرؤ بل توجهت إلى أمها؟ كان الأمر نسائيا ولذلك خصّت به أم فاطمة. التصقت بها. ألحت في التعلق بتلابيبها استحثاثا لها على الموافقة. امتنعت الأم. تمنّعت. تحايلت من أجل تأجيل الأمر إلى وقت لاحق، إلى أن يحين أوانه. غير أن فاطمة تناهت في الإلحاح حتى لان تصلّب أم فاطمة وأذعنت لرغبتها:

"سيكون لكن شريطة أن يحدث ذلك داخل غرفتك فلا تتجاوزي عتبة بابها خارجا إلا بعد أن تزيلي كل أثر.."

استعارت لوازم التجميل من صديقة لها. جاءت المنزل متخببة في عرقها ومنتفضة الأطراف بهزات الفضول والحماس الطفولي. استنجدت بأمها التي أظهرت التلكؤ وعدم الرغبة لسبب ما. لكنها في الحقيقة كانت لا تقل عن فاطمة ذاتها رغبة

وحماسا. كانت تريد أن تراها ولو لحظة خاطفة امرأة فتستبق الزمن بتصوراتها وترى وتأنس بفرحتها يوم أن تراها عروسا فتزفها بكل فخر،، ككل أم.

لم يكن أمر فاطمة مجرد عبث. لم يتوقف الحدث عند درجة التجربة وتحقيق رغبة دفينة أن ترى نفسها متبهرجة أمام المرآة، فتقيس بعين الجمال مظهرها بعد الزينة، بل خلف الحدث وخلف النتيجة كمنت الدوافع الخفية التي دفعت بها إلى الإقدام على التجربة.

لقد تعتبت فاطمة سن المراهقة.

تطلعت حولها لترى بعينيها الجديدتين الظواهر الطافحة على وجوه زميلاتها وصديقاتها. رأتهم بزينتهن وبدونها. لمست التغير الحاصل دون أن تخفي إعجابها بإيجابيته. راودتها الخاطرة وسواء أتداعت إليها منذ اللحظة أو بعد حالة تردد فإنها على أي حال، ها قد وقفت أمام المرآة تقلب عينيها في فاطمة الجديدة داخل فضاء المرآة الوهمي وتلتمس أسباب اقتناعها بحقيقة ظاهرها كما رأت ظواهر مماثلة لدى الأخريات.

كان من المفروض أن تتأثر بالرؤية، إما أن تجذل أو أن تكتئب. لكنها لم يبد عليها أنها اكترثت كثيرا بالتغيير الحاصل رغم ملاحظتها لبريق ساطع اجتاح عيني أمها قبل أن تتناهى إليها عبارات الإعجاب والفخر. لم يكن لفاطمة تصوّرا واضحا عما تتوقع حصوله. تأرجحت بين رغبة التجربة واللعب بالممكن والتلاعب بالمخيلة. ربما لذلك رأت ذاتها بعينيها المجردتين وليس كما يحدث عادة عند هذا المنعرج حيث ترى الفتاة ذاتها بعين ذكورية. ذهن فاطمة خاليا من وجود ذلك الدافع ولذلك ــ بكل بساطة ــ لم تستشعر الفارق بين ما كانت عليه قبل التزيّن وبين ما بعده.

لم يمر أمرها بسلام. استشعرت فاطمة الخيبة. ازدادت خيبتها ثقلا أنها لم تهتدي إلى أسباب عدم رضاها بالنتيجة. أولت الأمر كل التآويل. ارتأت أن عدم رضاها بالنتيجة هو وحده الذي شوه شعورها بمعايشة الظرف، ولذلك فقط استحال عليها استشعار المتعة المتوقعة. ربما كان مجرد الخشية من الفشل هي في حد ذاتها سببا مباشرا لردة الفعل حيث أقحمها ذلك الإحساس بالخيبة. لكن ثمة احتمالات أخرى جانبية تخللت خواطرها ودفعها إلى الاعتقاد بأنها قد استخدمت ألوانا غير مناسبة لها. لو أنها كانت ألوانا غير تلك لربما كانت النتيجة مرضية، وأنه يتعين عليها تكرار الزينة مرات عديدة بألوان مختلفة حتى تعثر على النسق المناسب لملامحها أو ربما، ليست لديها خبرة ثابتة حول الأدوات الحديثة ولم تكن تتزين بغير الأسلوب التقليدي.

اغتسلت. ألغت من ذهنها تكرار المحاولة، ورمت بذلك الأمر على ظهر الصدف،، مستقبلا.

بيد أنها لم تدرك بعدُ أنها كانت خاضعة لتفاعلات كيميائية بكيانها الفتي. كان ثمة غليان هرموني،، وهو ما أدركته أمها ولذلك شاءت مجاراتها في رغبتها حتى لا يضطرها رفضها المتصلب إلى اللجوء إلى فعل ذلك خفية، فربما تعلقت بمساوئ ذلك التصرف وأنست إلى تكراره وإيتاء أمور أخرى أيضا،، خفية.

كان ذلك شكل مواجهة فاطمة،، لذاتها.
مواجهة ذاتية وليس ثمة ما يمنع حدوث ذلك نظرا لطبيعة حدوثه.
"ما الأمر يا أم فاطمة؟"
لم تفهم مقصد زوجها إلا بعد مقارعتها بالحجة بأنه لاحظ تغييرا غامضا على فاطمة التي على غير العادة تسارع بالتحول عنه والإشاحة بوجهها عنه وغض بصرها كأنها تخشى أن يستقرأ أفكارها أو يرى أثر الزينة على وجهها. ثارت ثائرته متى أعلمته بالتجربة. تضاحكت بشكل مثير لتستهين بقيمة المشكلة. رأى في تصرف زوجته خيانة أمانة ولا يرى لها أسبابا يعذرها بها. لا يتعين عليها أن تخفي عنه أمرا مهمّا كهذا. كان يجب أن تتخذ المبادرة بكل تلقائية وتخبره بالأمر قبل وقوعه ولو لمجرد العلم. كان ذلك سبب ثورته،، منعا لحصول الأفظع على ذلك النحو ويكون هو آخر من يعلم.
أما الحادثة في ذاتها فقد عالجها بأكثر هدوء ورصانة.
لا تزال فاطمة تذكر ذلك اليوم جيدا. حيث أن ردة فعله لم تكن فورية ولم تحمل حصيلة تفاعلاته ولا شحنة تأثره بجرأتها وإقدامها على "التجربة"، بل بدا وكأن شيئا لم يحدث، فلم يقم شأنا للحادثة.
غير أن الحقيقة أنه كان يفعل ذلك،، سرا.
لقد ظل طوال الوقت يعالج الأمر ويزن موازينه دون أن يُظهر ذلك. حتى انتهز أول فرصة بعد أن وجد في نفسه الاستعداد لمواجهة أطوار الحادثة والتصرف السليم في تحديد نتائجها المستقبلية.
رسّخ في ذهنها قوله بأنها إما أن تكون أو لا تكون. أكد على أنه ليس ثمة موضع خلاف حول الذي يطلق عليه: بين ــ بين. أفادها بما كانت تجهل فأبهرها بحجته أنه لا جدوى من امتناعها عن أكل اللحوم المحرمة وفي ذات الوقت تسمح لنفسها بشحومها التي في مركبات التجميل، فتدعها تتخلل بشرتها وتمتزج بخلايا جسمها فتمتصها امتصاصا لا يقل تأثيرا ولا نتيجة عن أكلها اللحوم ذاتها.
لم تكن فاطمة تعلم ذلك وجهلها لم يزد عن جهل أمها بما لا تعرف. تبدى الأمر على غاية من الخطورة حتى وإن صُرف النظر عن الجانب الآخر من المشكلة التي أجّلها أبو فاطمة إلى ما بعد تلك الحقيقة الغير قابلة للدحر والنقاش.
إنها وحيدته، ولها جزء من رجولته أدمجها في تربيته لها. تشبعت فاطمة بالصرامة وإحقاق الحق وبعد النظر. أخذت من آرائه واستفادت من مواقفه. لكن الأهم من ذلك أنه رفع بعض الحواجز ـ ليس كلها ـ التي عادة ما تكون قائمة بين الأب وابنته، حتى إذا ما وقع نقاش ما حول أي أمر تُرفع الكلفة وتلتقي العيون، فتكون الصراحة جسرا للتفهم والتفاهم وليس للمعارضة والتحدي والتماس فرض الرأي والتأرجح بين الأمر والخضوع.
قال لها ما لا تزال تذكره: إما أن تكوني أو لا تكوني يا فاطمة. ولم يعقب قوله بإلقاء حمله على ظهر شكسبير بل شاء إيضاح أهمية تحديد المواقف، أنه لا يغني

عنها جهلها لتركيبة تلك المساحيق والأدهان لأنها تعرف الكتابة وتتقن القراءة فلا حجة لديها ولا عذر. استوعبت فهمت قوله واستيقنت الحقيقته متى استطرد مؤكدا:

"ليس مهما أن نعرف وليس مهما أيضا ألا نعرف، لأنه من المستحيل أن نعرف كل شيء، لكن الاجتهاد في المعرفة هو الوسيلة الوحيدة لتجنب الكثير من مساوئ ما لا نعرف."

لم يؤنبها. لم يعاتبها. لم يضخّم شأن الحادثة أو يشعرها بسوء ما اقترفته في حق نفسها أولا ثم في حقه هو الذي يثق فيها كل الثقة ويضعها دائما فوق كل الشبهات. لم يفعل بل مضى مقتصرا على اطلاعها على ما من شأنها معرفته والحذر منه. قال لها بأنه يتعين عليها الخشية من أن تُرفع عنها "الحصانة الإلهية" في أية لحظة كنتيجة لما تقترفه من الأخطاء في حق نفسها أولا ثم في حق غيرها. أما في حق الله فعلاوة على رفع "الحصانة" فإنه يضاف إلى ذلك غضبه.

".. إننا نعيش وجود مشروطا. شروط صارمة إما أن نكن أولا نكن ولا وجود لوضع رمادي: بين ـ بين. ما حُلّل وما حرّم،، إما أن تفعليه أو أن تتركيه. إن حدث وزلت القدم فيجب الإسراع بالعودة وهي ضرورة ملحة. التوبة والاستغفار والرجوع تحت حماية الخالق حسب شرطه القائم باستمرار إن كان العبد مع الله، فالله معه."

بدت فاطمة مشفقة من حتمية الصيرورة. وتبدى فهمها للأمر في شكل شطوب واضحة على جبينها كأنها تجسم هذا الالتحام وتستوعب الانفصال وما يحدث في كلتي الحالتين.

"لأقل بأن الله معك،، عونك وحاميك طالما أنت تمتثلين إلى شرائعه وتتجنبين نواهيه. إنه هناك حيث ما تكونين يكون ولك في القرآن ما يؤكد كل ذلك. بالمقارنة،، وبالمقابل،، إن حدث واقترفت أمرا منهيا عنه ومحرما تحريما صارما، فإن فعلتك في حدّ ذاتها وعلى غرار الشرط القائم، فإنه ـ تحديدا عند تلك اللحظة بالذات ـ يصبح للشيطان سلطانا عليك. أنت تمنحينه حق التدخل في حياتك وترفعين الحاجز القائم بينك وبينه فيسارع إلى إيقاعك في المزيد من الغلط لتبعد بك الشقة عن الرجوع إلى الإيمان حتى يوقعك في الكبائر. عندها تكونين ملكا له،، له حق التصرف فيك كيفما شاء ويجنّدك لخدمته،، سواء في إيذاء الآخرين قولا وفعلا أو أن تكوني مصدرا باعثا للخطيئة ولإشاعة الفاحشة وتيسير وقوع المكاره.."

لم يكن في حاجة إلى استقراء خواطرها. لقد ظهرت الفوضى في عينيها في شكل غشاوة دلت على الذعر تقديرا لحقيقة قيمة الفواصل والحدود التي لم تكن لتراها على ذلك النحو من قبل. لم تفكر فيها بأي شكل من أشكال الخطورة الكامنة في أبسط سلوك خاطئ.

"كان لي صديق.."

قال ذلك وتطلع في عيني أم فاطمة كأنه يستشهدها لتشهد على ثبوت الحالة وتقرنها إلى فاعل معين، شخص دون غيره، فأومأت رأسها مساندة وتأكيدا على معرفتها للشخص وتذكرها الحادثة:

الفصل الثاني

آيان هرسي علي،، زنجية.
وسيذكرها التاريخ.
سيذكرها وذلك ليس للونها ولا لسانها بل لأنها ندبت وجهه حتى أدمته بأظافرها المخلبية،، ندبا موجعا.
ستحتويها ذاكرة الزمن وتلملم تفاصيل حياتها المتقلبة على مقلاة الظنون والتصاريف الراديكالية، تماما مثل غيرها بعد أن بات من المألوف تشكيل ملامح آيان هرسي في وجوه العشرات،، المئات بل الآلاف من أمثالها. ربما لهذا السبب سيكون لها شأنا مميزا مع التاريخ،، الأعظم.
كغيرها.
وقفت منتصبة القوام، بارزة الصدر، شامخة الأنف، متحفزة على أطراف أصابع قدميها، قابضة قبضتيها ومتوهجة الأنفاس بدفء ربيع عامها العشرين.
كان ذلك منذ بضعة عشرة أعوام وكان يوم ربيعيا عند الآخرين.
غير أن يوم آيان هرسي غير ذلك، حارقا، صاهرا، مذيبا ومفتّا للعزائم بعد أن كانت واحدة ممن هرعن وصفقن ورقصن عند الباحة العريضة متى حضرت استعراضا غريبا لم ولن يحصل بعد حصوله ذاك. لقد رأت بعيني رأسها سيارة جيب عسكرية تجرّ خلفها جثة جندي أمريكي على التراب. فامتزجت التهاليل والصراخ والطلقات النارية في الفضاء بشكل أثار فيها الحمية، فصرخت هي الأخرى ورقصت فرحا بلحظة الانتقام مؤقتا. تخبب جسدها عرقا وأيقنت من حدوث كارثة. ستعقب تلك الفرحة الكاذبة وأن البارجة البحرية الأمريكية الرابضة عند مرمى حجر من "ماقاديشو" ستسحق المدينة لتكون الكارثة شاملة، وهي لم تشهد الحياة بعد ولا تريد أن تموت من أجل دم جندي أجنبي متعفّن.
كانت تلك الحقيقة الظاهرة.
أما الحقيقة الأخرى فإنها تجسمت في شكلها المخطوط على جبينها وتشكلت في شكل وقفتها المتصلبة لحظة تأملها لكيانها الفتي وتقليب أطرافها بعين الرؤى الطامحة وبدوافع من لا يريد الموت بدافع انتقامي لمجرد أنها رقصت وصرخت وتخببت عرقا. في غضون تلك اللحظة الخارقة ورد الاحتمال في القول عنها بأنها في ربيع العمر وصدق فيها الظن أنها لن تقنع بالحياة في حارتها المغبرة ولا

بصعوبة المعيشة والقحط والمجاعة المزمنة أو الموسمية. لن تقنع بأن تكون كما كانت بالأمس.

لن تفعل، وذلك ليس لأن الصومال عُرف عنه الفقر والمرض والجفاف والجهل والبطالة وضروب سياط التوتر اليومي حيث تنأى بها رياح الاضطرابات السياسية يمنة ويسرة فلا يقر لها قرار، بالإضافة إلى المواجهة العسكرية الراهنة. إذن، ليس لذلك فحسب بل أيضا لأن آيان هرسي ذاتها ضاقت ذرعا بضروب الفوضى وكغيرها يئست من الاستقرار والأمان. لذلك أعرضت عن كل التوقعات وعارضت كل الآراء التي حملت شيئا من الأمل في حدوث بعض الانفراجات فصرفت عن ذهنها كل بواعث التصابر وأقلعت عن مراودة نفسها وحملها على الصبر. ومن ثم حزمت بعض أمتعة لها وأصرت على الرحيل.

أرض الله واسعة وليس لكل من هاجر من مخططات تتجاوز الهامشية أو له من الدوافع ما تتعدى المجازفة، لذلك كان لها مما كان لغيرها من قبلها،، ومن بعدها.

صفقت الباب في وجه أمها وحسمت أمر رحيلها دون رجعة. استخفت خلف مشيئتها وفرضت إرادتها وركبت جموح نفسها. هاجرت. اتقدت أطرافها حماسا فازدادت توهجا وعنادا وإصرارا. تقلبت كل منقلب حتى بلغت مبلغها عند إحدى المرافئ،، تهريبا. عندها كانت قد استوفت حاجتها إلى التخفي بعد أن آتت على آخر درهم من ثمن قرط أمها.

وطأت قدميها على فيروز شاطئ الحرية فآمنت بأمانها ونفضت يديها من ماضيها وسدّت خط الرجعة بإلقاء جواز سفرها،، في أول سلة مهملات اقتيادا بالأوائل واهتداء بخطى السابقين دون أن تدرك أنها أولى اللاحقين وأن وقعتها في أرض المتاهة لم تبدأ بعد. كيانها الفتي مازال يحتفظ بما اختزله،، من شموس أصياف الصومال وبما تشبعت به خلاياها من طاقات حيوية حية ستندثر لاحقا وتتلاشى تدريجيا مع السقوط التدريجي لكل خلية، فتُستبدل بأخرى غريبة.

انتفضت انتفاضة ديكية..

نفضت أطرافها من غبار السفر رقصا بباحات المراقص..

اغتسلت من عوالق أملاح الأبيض المتوسط بالجعة والخمرة الإيطالية المعتقة دون أن تقيم فارقا بين تلك والمشروبات الروحية الأخرى.

رقصت ورقصت ورقصت.

تلوت وتغنجت وتثنت وتبهرجت وجعلت من أنوثتها الغضة رصيدها اليومي عند عتبات كل فجر أحمر. انتشت بانتفاضاتها على المساحات الضيقة من باحات المراقص فأسقطت عن ذاتها كل ما اختزلته أوتارها العصبية من التوتر والتيقظ المفرط والقلق والحيرة القديمة. تراخت وتداعت وتمددت فتقلبت على مختلف المضاجع وبين ألحفة المخادع المشبوهة.

قتلت شيئا ما بداخلها دون تعمد؟

خلعت عن نفسها شيئا آخر،، دون قصد.

نفت وجود أمسها. لم ترض بيومها واستهدفت هدفها بعيدا عن مرمى الذل والمصمصة والتخفي تحت مظلات الآخرين.

غادرت "نابولي". اخترقت الحدود السويسرية. نفذت من خلال شمال فرنسا وعقدت العزم على حط رحالها في هولندا نظرا لوفرة الصوماليين هناك وطمعا في ما أُشيع عن إمكانيات الاستقرار حتى في أسوأ الأحوال حيث لا تمنح حق الإقامة.

آيان هرسي علي،، زنجية مسلمة.

كانت قصيرة القامة نسبيا غير أن سمنتها الخفيفة التي أكسبتها ردفتين مكتنزتين جعلتها تستقطب الانتباه بمثالية قوامها المتكامل في تناسق أطرافه المبرزة لمعالم أنوثتها الموحية بالفوران البركاني والإيحاءات الصارخة المتجلية في تحركها المميز والمؤكد لحالة الدفء الذي عُرفت به الإفريقيات،، الزنجيات، سيما إذا ما اقترن الظاهر منها بطبائعها القديمة والدخيلة المفتعلة وبواطنها حيث كانت جرأتها وأسبقيتها في اتخاذ المبادرة وإبداء كل ما من شأنه أن يوحي بأنها امرأة فتية مجازفة، غامضة في عنادها، عنيدة في مداهماتها فلا تتراجع عن موقفها ولا تلغي آرائها، كل ذلك تكملة مكمّلة لظواهر أنوثتها، فلا غرابة في أنها ـ إلى غاية يومها هذا ـ قد سهل عليها فرض وجودها بين كل الآخرين بطباعها أو بظواهرها أو بالاثنين معا.

لكن.

ليس لذلك سيذكرها التاريخ، بكل تأكيد. ليس لأنها زنجية ولا لكونها أنثى،، نمرة إفريقية، إذن سيذكر أيضا آلاف الأخريات الشبيهات بها في كل مكان وربما كان من بينهن من كن يكتسبن أفضليات ثانوية تتفوقن بها عن آيان هرسي ذاتها ويُكسبن الإفريقيات اليقين عن ذلك الانطباع الراسخ في الأذهان،، من قبل.

تهالكت في مقعدها أمام المحققات الثلاثة بإحدى مكاتب الهجرة وكان تهالكها مبلغا في الإحباط واليأس، علاوة على الاستضعاف وقلة الحيلة. قالت عن نفيها كل ما من شأنه إثارة الشفقة عليها وما تبتزّ به التعاطف معها وعدم التواني في تقديم كل المساعدات.

كانت تلك أولى الخطى الثابتة على أرض المسلك الملتوي الذي سلكته منذ تلك اللحظة،، مسلك ضيق ومتقاطع مع جملة من المسالك الأخرى المعقدة.

قالت بأنها صومالية.

أكدت القول إثباتا على كونها مسلمة. كررت القول الأخير رغم علمها المُسبق بمواقف الغرب تجاه الإسلام ورغم تأكيدها من شكل المعاملة السيئة التي ستعامل بها.

المواطن الهولندي ساذج، بل إنه لأكثر سذاجة من... وليس أثبت على حقيقة شيوع هذا الانطباع ما سبقه إلى إثبات اعترافه بالديمقراطية والاستماتة في إظهار التزامه بحرياتها الألف وتطبيق شرائعها بصدر رحب ورضاء كامل وبكل تلقائية، بدليل أنه لم يحرّم تعاطي المخدرات ولم يجرّم بيعها ثم هو فتح كل أبواب الدعارة المفضوحة حتى اختلط الحابل بالنابل وبُورك زواج النظائر وله في ذلك الأفضلية في

الأسبقية. ليس ثمة من يعلم فينكر أن أمستردام كانت منذ عصر النهضة مهدا ناعما للأفكار الراديكالية فمأوى للمفكرين والفلاسفة المناهضين للدين والمنشقين عن الكنيسة والثائرين على الشرائع السماوية، حتى قيل فيها بأنها وكر الأبالسة أو عاصمة إمبراطورية الشيطان على لسان الكنائس التي أجمعت على ما أفصحت عنه وجهرت به ولا تزال،، همسا وغمغمة واهية.

قالت آيان هرسي بأنها صومالية.

تبادر إلى أذهان المحققات الثلاثة ما حملته اللفظة من تصورات اختزلتها الذاكرة كمؤشرات سيئة عن بلد لا تعاني الفقر والجوع والجفاف والأمراض والجهل فحسب بل أيضا تضمنت التناحر الدامي بين القبائل والمواجهات والنزاعات بين العشائر وغياب السلطة التي ليس لها من الشرعية غير اسم لا يُعترف به وحكومة لا يخضع لها أحد. ما مفاده عموما أن ثمة أمة بأكملها دائبة التقلب على مقلاة التناقضات والصراعات المحمومة.

كان ذلك منذ بضعة عشرة أعوام،، أي في ذات اليوم الذي جاء فيه أبو فاطمة إلى السويد بينما جاءت آيان هرسي إلى هولندا.

لاحقا، بعد زمن غير قصير من ساعة مدخل آيان هرسي إلى مكتب الهجرة طلبا للجوء وطمعا في الحصول على الموافقة بالإقامة والشغل، فتكلّفها وتهالكها ذاك على مقعدها والتناهي في إظهار مظاهر البؤس والأسى والحزن والمعاناة، لاحقا،، سيخلع الهولندي عن نفسه عباءة السذاجة ويكفر بالمشاعر الإنسانية ويلعن دواعي التعاطف فيتمرد على غبائه وطيبته ويُلقي وراء ظهره بكل طبائعه القديمة وينأى إلى التطرف ومعاداة كل الأجانب، باستثناء،، آيان هرسي علي،، مؤقتا.

سيحدث ذلك لاحقا.

لكن آيان هرسي قابعة اليوم على مقعدها ومتكورة على ذاتها، مكدودة العينين من أثر البكاء،، متشققة الشفتين الغليظتين من فرط اللهاث والشهيق المتقطع. قالت قولها بأسلوب مثير ومتميّز. لقد تناسقت الوقائع. تتابعت الأحداث التي ذكرتها في إسهاب فلم تترك مجالا للشك في أنها حقا قد عاشت كل تلك الظروف وتقلبت فعلا بين كل تفاصيلها بما أنها وصفتها بدقة متناهية وبشكل محكم. الأمر الذي من شأنه أن يستنضح كل دوافع التفهم المؤدية رأسا إلى الاستيعاب والاقتناع لدى،، المحققات.

صومالية ذكية، وفي مقتبل العمر أيضا. صنعت بكل وعي ومن خلال ما ذكرته لهن القرار الذي سيتخذنه في شأنها وأقنعت اللجنة بصعوبة ظروفها وبأحقيتها في الحصول على الإقامة بالبلد "المضياف". لقد صنعت القرار من خلال توفيقها في صياغة الصورة المأساوية لمشكلتها ولملمت أطراف التصورات في الأذهان بذكاء ثم أكدت كل ذلك بالتناهي في إظهار كل مظاهر الضعف وصقلها بدموعها الغزيرة إشفاقا على نفسها من الهلاك المحقق إن هي أُعيدت على أعقابها.

غير أن الذي لم تعلمه المحققات وما لم يطّلع عليه أحد وما لم تُشر إليه آيان هرسي لا بالحركة ولا باللفظ أنها قد أصيبت بحالة أرق طوال الليالي الثلاثة السابقة

والتمست إجهاد نفسها وحرّمت على نفسها الأكل والمشرب إلا ما سد الرمق وذلك كي تظهر بالشكل الملائم والمنطبق على أقوالها. الأمر الذي دل على أقوالها هي الأخرى لا علاقة لها بالحقيقة، بل ضربت آيان هرسي أخماسها في أسداسها. قلبت أمرها بعد أن قلّبت أمر كل اللاجئين الذين جاءوا من قبل وقارنت قصصهم وحدّدت فشرّحت أسبابهم فرأت التكرار في الوقائع والتشابه البيّن بين كل الدوافع والنتائج. رأت ضعف حجتها وانعدام حظوظها في حمل المحققات على الاقتناع بأسبابها، لذلك،، لذلك فقط وليس لأسباب أخرى اختلفت آيان هرسي باختلاف قصتها المختلفة عن كل القصص. جاءت المحققات من حيث لم يحتسبن فأخذتهن بالإبهار واجتاحت أذهانهن بما لم يتوقعن ودخلت بهن مدخلا لم يعشنه من قبل وليست لهن أية خبرة فيه، حتى يكون بوسعهن مراجعة الحقائق الشبيهة لدى حالات أخرى وبالتالي لا يمكنهن تطبيق أحكاما قد حكمن بها على غيرها. لذلك أوقعتهم في شرك التضليل مع أنها لم تكن في الحقيقة غير امرأة شابة،، موهوبة،، ذكية وجريئة.

كذبت آيان هرسي وتعمدت التلاعب بالأذهان وشحذت قدرتها على الإقناع والتأثير ولعبت دورها الخارق فوفقت في مأربها.

كان ذلك أول انتصار فعليا لها. لكنه كان أيضا تجربة ناجحة دفعتها إلى التطلع - مشرئبة العنق - إلى نجاحات أخرى على غرار النجاح الأول واعتبرت بالنتيجة فلم تكترث بمسلكها ولا بأساليبها المشبوهة الخاطئة.

لا غرابة في شأن خطتها المحكمة. لقد كانت مبدعة، ومن أهمّ خصوصيات الإبداع الاعتماد على عامل الاختلاف والتجديد. لقد انتصرت ومن البديهي أن انتصارها قد رفع من معنوياتها فأكسبها ضربا من الثقة بالنفس والإعجاب فالفخر بقدرتها في صنع الأكذوبة ودفع الغير على تصديقها، علاوة على الاعتزاز بظرف الاختلاف الذي فصلها عن الغير، عن المجموعة، عن الكثرة المتشابهة.

الانتصار في هذا الصدد عنى التميّز. التميز ينبثق عادة عن موهبة خارقة. ومن البديهي أن المواهب لا تُباع ولا تُشترى، بل ولا تخضع إلى الاختيار ولا المفاضلة. ما مفاده أن آيان هرسي مكتسبة لتلك الميزة وتحمل بين جيناتها الوراثية الجرأة الكافية لاختراق الحدود وتحدي العوائق وشق طريق مشيئتها بأقدام راسخة وبخطى ثابتة مفعمة بإيجابية نظرة التطلع إلى الآفاق الممكنة.

لقد فرحت بقدرتها على تصريف إرادتها أكثر من فرحتها بالحصول على الإقامة في مدة قياسية. جذلت بنجاح تجربتها في مواجهة التحدي أكثر من اهتمامها بوعود السلطات الهولندية بتمكينها من حياة مستقرة. نسيت تماما الجهد الذي بذلته من أجل صياغة قصتها المختلفة وتنقيح الوقائع وضبط درجة المأساة.

كتبت. شطبت. نقّحت. عدّلت وغرزت قلمها في الورقة عشرات المرات وذلك ليس قهرا أو عجزا بل إعجابا وانبهارا بما تفتّق عنه خيالها من أحداث وهمية كادت تصدقها بنفسها بل هي فعلت ذلك يقينا ولا غرابة في ذلك بما أنها كانت قد سجلت رؤوس أقلامها في البداية، ثم نسجت خيوط الأحداث وعقدت بعضها ببعض،، زمنا ومكانا، ومتى استوفت درجات الرضا ورضيت بالنتيجة. عندها مضت تجسّم الوقائع

حركيا، فحددت ـ بكل تيقظ وفطنة ـ متى يتعين عليها التوقف والتزام الصمت صمتا متعمّدا. متى يجب الاستنجاد بالدموع ومتى تطرق برأسها إلى الأرض إحباطا ومتى تخفي وجهها بكلتي يديها قهرا وضعفا ومبلغا في تجسيم اليأس والقنوط. لذلك اقترنت اللفظة بالحركة فاستيقنها العقل ومن خلال التمرين والتكرار ترسخت "القصة" الوهمية في الذهن واستوعبتها الأحاسيس فعاشتها وكأنها حقيقة،، واقعة بل وليس ثمة أدنى شك في وقوعها، هناك، في مقاديشو الصومال.

نجحت ففرحت.

وفقت فصدّقت واشتبه عليها أمرها فاقتنعت. آمنت بحقيقة ما اختلقت.

توافق النجاح مع انبثاق مشاعر الانبهار بحضارة غربية مشبعة بالحريات الشخصية. تولّد لديها إحساس ذاتي تحرري فجّر فيها كوابتها وأطاح عنها كل دواعي الحصار الاجتماعي القديم الذي كان مفروضا عليها وصقل مقدراتها فتبلورت لديها ثوابت الإرادة على غرار ما اكتشفته من إمكانيات تتيح لها شق طريقها وتألبت أسبابه. أيقنت أن من غيره،، من غير أن يكون لها هدف وطموح فإنها حتما سيُحكم عليها بالتراوح في موقعها وبدون وجود طاقة الطموح ما كان بوسعها التطلع إلى الغد بعين التفاؤل وما كانت لتتمكن من تخطي خطواتها الأولى التي ستبدأ بها مسافة الألف ميل.

لقد رأت بعين بصيرة وخلال فترة انتصارها الأولى التي سبقت لقاءها بالمحققات. رأت كل ما من شأنه أن يعكس لديها حياتها التي لم تعشها بعد.

رأت حولها مئات المهاجرين. تعرفت على الكثير منهم حتى عرفت ما استفادت منه من خلال الثرثرة والحوار المقصود. حاورتهم وابتزت منهم الإجابات الضرورية التي كانت في حاجة إليها لفهم أطوار المعيشة التي جعلتهم ـ كما رأتهم ـ دون المستوى رغم طول أمد إقامتهم بهذه البلد.

رأت حولها ما تعثرت فيه لاحقا ضروبا من الحقائق التي كانت حقا تثقل كاهل كل أجنبي محبط، بل إلى درجة استثارة الشفقة،، مظاهر الفقر والتعاسة والضعف القاهر. غير أن الأفظع من ذلك حسب رأي آيان هرسي أن يرضى المهاجر بوضعه ويستمر على ما هو عليها. الأمر الذي يفقده إحساسه بكرامته ويهز فيه ثقته بنفسه، يتلف همّته ويضعف عزيمته ويخلع عنه شخصيته ويُغرقه في مستنقع البؤس المأساوي.

".. لا أفهم."

بكل تأكيد لم يكن بوسعها فهم دوافع صبرهم على أوضاعهم المزرية. لم تجد لديهم أعذارا مقنعة ولم تقتنع بحججهم خصوصا الأفارقة منهم :

".. ظروف صعبة.. لا أمل ولا رجاء يُرجى إذا ما اقترن غلاء المعيشة بالبطالة المزمنة،، علاوة على عدم وجود الحلول الاحتياطية الجانبية."

لكن آيان هرسي لم تجد في الإجابة غير شكل تافه من أشكال الهروب من مواجهة الواقع، ربما جهلا منها بظروف حياة أجنبي أو جهلا بأوجه التمييز العنصري الذي سدّ كل المنافذ في وجه الغرباء حيث تجعل كل جهود الواحد منهم في